

آيات السجدة وهياقاتها دراسة بلاغية *



د. سعيد بن طيب بن سحيم المطرفي

أستاذ البلاغة المساعد بقسم اللغة العربية- كلية الآداب - جامعة الملك عبدالعزيز

- من مواليد عام ١٣٨٤هـ بمكة المكرمة.
- تخرج في كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى عام ١٤١٠هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم البلاغة والنقد- كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى .
- عام ١٤١٧هـ بأطروحته: دور البلاغة العربية في دراسة النص الأدبي وتقويمه"،
- كما نال شهادة الدكتوراه منه أيضا عام ١٤٢٥هـ بأطروحته: الإنشاء ومواقفه في شعر هذيل."
- من أعماله المنشورة: كتاب "التحرير الكتابي" (بالاشتراك) ، "قصيدة قيس بن العيزارة: دراسة في جماليات النص".
- البريد الإلكتروني: salmatraf@hotmai.com

* دعم هذا البحث من قبل جامعة الملك عبد العزيز تحت الرقم ٢٢ - ٤٢٩

الملخص

يركز هذا البحث على لغة القرآن الكريم التي بلغت الكمال اللغوي، ويحاول أن يستجلي الإعجاز البياني في القرآن الكريم من خلال النظر في آيات السجدة، وسياقاتها.

وقد تحدث الباحث في التمهيد عن فضل السجود بعامة، وسجود التلاوة بخاصة، وذلك من خلال الأحاديث النبوية، وذكر الباحث أيضا فيه آراء العلماء في آيات السجدة عددا وحكما. وفي المبحث الأول ذكر الباحث وجهة نظره حيال لفظ (السياق) الذي جاء في العنوان، محاولا التدليل عليه من خلال الموروث النقدي، ومن خلال آيات القرآن الكريم نفسه عند علماء الدراسات القرآنية، وكان الزركشي وبرهانه موطن هذا الاستشهاد. و المبحث الثاني جعلته منصبا على المقاصد الكلية للسور التي وردت فيها هذه الآيات، وربط ذلك بالسجود، وكانت تلك المقاصد هي الموجودة في كل أو جل السور لا بعضها، مثل كونها مكية، أو كونها منوّهة بشأن القرآن الكريم... الخ. وفي المبحث الثالث تحدثنا عن أثر السياق في ربط آيات السجدة بسورها، ووقفنا عند قضيتين: الأولى موضع آية السجدة بالنسبة للسورة، وكيف أفضى سياق الأخيرة لبناء معين للآية يختلف من سورة لأخرى، فوقفنا مثلا عند صلة آية السجدة التي جاءت في نهاية السورة بمطلعها، وذكر بعض الألفاظ مقدّمة وفي آية أخرى مؤخرة، كالتكبر مثلا في سورتي الأعراف والنحل، ووجود التضاد في سورة الرعد وصلته بالسورة كلها... الخ، والقضية الثانية هي ورود لفظ الجلالة (الله) أو صفة الربوبية أو صفة الرحمن في آيات السجدة ولماذا يأتي لفظ الجلالة تارة في آية ويأتي بالصفة الأخرى في آية ثانية، وبيّنا كيف يرتبط ذلك بكثرة أو قلة ورود ذلك الاسم العظيم لله جل وعلا، وتلك الصفات الأخرى، وفي المبحث الرابع وقفنا عند أهم الخصائص الأسلوبية التي رأينا أنها تدعم أثر السياق في بناء الآية، ولم نقف وقفات مستقصية عند كل لفظ أو بناء حتى لا يتشعب بنا البحث، ثم ختمنا البحث ببعض النتائج التي توصلنا إليها.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد: فإن الدراسات والأبحاث التي يكون ميدانها كتاب الله تستمد أهميتها، وثراءها من هذا الكتاب العزيز، بالإضافة إلى أن كل تلك الدراسات، والأبحاث، والتفاسير التي تملأ المكتبات منذ عصور هي أكبر دليل على ذلك الثراء المنقطع النظير لهذا الكتاب العزيز؛ فالكل يجد فيه مجالا خصبا لتقليب النظر في بيانه، وما يحمله ذلك البيان من بناء محكم، عزيز، متماسك، لا يدانيه نص على ظهر البسيطة. ونحن إذ نحاول في هذا البحث أن ندلي بدلونا على قلة الجهد، وضعف الرشاء فإننا إنما نمس جانبا عزيزا من جوانب آيات الله نؤكد من خلالها ثراء هذا الكتاب، وقوة بنائه.

وخصصنا آيات السجدة بالبحث لأنها آيات لها خصائص متقاربة من حيث دلالتها على السجود، وقرب بنائها من بناء الآيات الأخرى في نفس السياق، ومن حيث أثر سياقها ضمن سورها في ذلك البناء.

و ليس هناك رسالة علمية تخصصت في البحث عن سياقات آيات السجود على حد علمي، وهناك كتاب للدكتور مالك حسين الدسوقي النعيري بعنوان: (من بلاغة القرآن فيما يسجد العباد بسببه للرحمن)، وقد تناول فيه المؤلف آيات السجدة آية آية، وكان يعرض لكل آية منفصلة عن أختها، وينظر في سياقها كما يقول في سورتها، ولم ينظر لهذه الآيات نظرة شاملة تدمج الآيات مع بعضها، وتظهر خصائصها، وأثر سياقها في بنائها، وقد وعد بهذا في مقدمة بحثه؛ ولكن جاء البحث أجزاء متفرقة لا رابط بينها، ومع ذلك فقد كان الدكتور مالك النعيري ضمن كوكبة من العلماء الذين خدموا كتاب الله جل وعلا، منذ فجر نزوله إلى وقتنا الحاضر، ولعل كتب التفسير البياني هي وجهة الباحث عن مواطن الإعجاز القرآني، وبيان بعض متشابه النظم فيه، وهو ما أوليته عناية كبيرة في هذا البحث.

التمهيد

تحمل آيات القرآن الكريم عدة مزايا تتم عن إعجازه، وقدرة وإحاطة منزله جل وعلا، وآيات السجدة لها طراز من البناء والإحكام، شأنها شأن بقية آيات الله جل وعلا، وهذا الإحكام آت من خلال وحدة موضوعها، وقرب دلالاتها، وتغيّر بنائها في آن واحد، وهذا كله يمكن تفسيره من خلال السياق، سواء كان سياقاً قريباً، أو بعيداً؛ فالأمر بالسجود يعم تلك الآيات، وتغيّر بنائها يلحظ فيه ذلك السياق، ويجعله بناءً مغايراً، سواء كان في ورود لفظ الجلالة تحديداً، أو بعض صفاته جل وعلا، أو كان ذلك من خلال عينة الساجدين التي تختلف من آية لأخرى، أو غير ذلك مما سيتضح في ثنايا هذا البحث بعون الله.

١- بعض الأحاديث التي وردت فيها وفي السجود بعامة:

لا شك أن السجود هو الأدل على كمال الخضوع لله جل وعلا؛ حيث يسجد العبد على الأرض، وتلك غاية العبادة الحسية، فإذا وافق ذلك إيمان قلبي فقد كمل إيمان العبد.

والأحاديث التي بينت فضل السجود كثيرة عموماً، من ذلك:

ما حدث به معدان بن أبي طلحة اليعمرى قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال قلت: بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((عليك بكثرة السجود لله؛ فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة))^(١).

وما حدث به ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: ((سل))، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: ((أو غير ذلك))، قلت: هو ذاك قال: ((فأعني على نفسك بكثرة السجود))^(٢).

(١) صحيح مسلم، كتاب: فضل السجود والحث عليه، حديث رقم ٤٨٩٥، ٢/٣٧٩.

(٢) المصدر السابق، كتاب: فضل السجود والحث عليه، حديث رقم ٤٨٩٦، ٢/٣٧٩.

أما ما يخص سجود التلاوة فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إذا قرأ بن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار))^(١).

٢- آراء العلماء في هذه الآيات عددًا وحكمًا:

جمع تلك الآراء أبو حيان في البحر المحيط فقال عن عددها: «وقيل: سجود التلاوة أربع سجودات [ألم تنزِيل] [وحم تنزِيل] والنجم والعلق، وذكر عن ابن عباس أنها عشر، أسقط آخر الحج وص وثلاثاً في المفصل، وروي عن مالك إحدى عشرة، أسقط آخره الحج وثلاث المفصل، وعن ابن وهب أربع عشرة، أسقط ثانية الحج، وهو قول أبي حنيفة والشافعي، لكن أبو حنيفة أسقط ثانية الحج وأثبت ص، وعكس الشافعي، وعن ابن وهب أيضاً وابن حبيب خمس عشرة، آخرها خاتمة العلق، وعن بعض العلماء ست عشرة، وزاد سجدة الحجر»^(٢).

وقال عن آراء الفقهاء بشأن حكم السجود: «والجمهور على أنه ليس بواجب، وقال أبو حنيفة: هو واجب ولا خلاف في أن شرطه شرط الصلاة: من طهارة خبث، وحدث، ونية، واستقبال، ووقت، إلا ما روى البخاري عن ابن عمرو وابن المنكدر عن الشعبي أنه يسجد على غير طهارة، وذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق إلى أنه يكبر ويرفع اليدين، وقال مالك: يكبر لها في الخفض، والرفع في الصلاة، وأما في غير الصلاة فاختلف عنه، ويسلم عند الجمهور، وقال جماعة من السلف وإسحاق: لا يسلم، ووقتها سائر الأوقات مطلقاً؛ لأنها صلاة بسبب، وهو قول الشافعي وجماعة، وقيل: ما لم يسفر ولم تصفر الشمس، وقيل: لا يسجد بعد الصبح، ولا بعد العصر، وقيل: بعد الصبح لا بعد العصر، وثلاثة الأقوال هذه في مذهب مالك، وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس أنه تَلِيَّهَا كان يقول في سجود

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٦٩: باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(٢) البحر المحيط في التفسير، لابن حيان ٥/ ٢٦٤.

التلاوة: ((اللهم احطط عني بها وزراً، واكتب لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً))، ومشهور مذهب مالك أنه لا يسجد في الفريضة سراً كانت أو جهراً، ومذهب أبي حنيفة أنه واجب على السامع قصد الاستماع أولاً^(١).
وقد دار البحث في العشر الآيات الأولى من آيات السجدة؛ حتى تكون أنموذجاً لغيرها من الآيات، ورغبة في التركيز والاختصار، ولأن هذه الآيات تفي بالغرض فيما يعتقد الباحث؛ حيث يتجلى فيها السياق مؤثراً في بناء الآيات.

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٦٩

المبحث الأول

السياق الذي تقصده

إن بناء القرآن بناءً محكم، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، وإننا إذ نحكم على ذلك البناء بالإحكام، وحسن النسق لسنا الوحيديين في هذا الحكم، وليس ذلك نابعا من دراسة شخصية مستفيضة لكل سور القرآن، بل ذلك يعود إلى منزل القرآن سبحانه وتعالى؛ فالقرآن الكريم كلامه جل وعلا، وهو صفة من صفاته الذاتية .

ثم القياس - مع الفارق-، فهذا كلام البشر متمثلا في النصوص الأدبية حيث نجد الشاعر قد اتسق بناء قصائده في شتى الموضوعات التي يطرقها، ولم نجد أحدا رمى الشعر الجاهلي في عصره بالتفكك والاضطراب، وحتى الذين رموه بهذا الأمر في عصورنا المتأخرة كالعقاد^(١) والنويهي^(٢) مثلا وجدوا من ينقض حججهم، ويظهر تناغم القصيدة العربية رغم ما فيها من موضوعات شتى^(٣).

لقد سعى النقاد قديما إلى دراسة منازع الشعراء في بناء قصائدهم؛ يحدوهم إلى ذلك الانطلاق من أنه لا بد من تعليل لهذه القفزات الشعورية الموجودة في ذلك الشعر الغنائي؛ ولهذا عللوا لبناء القصائد التي يظهر فيها تشتت موضوعاتها: من البكاء على الأطلال، وذكر الرحلة، والبكاء على الصاحبة في خضم المدح والفخر؛ فابن قتيبة يقول في مقدمة كتابه الشعر والشعراء: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار، والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق... ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من

(١) انظر: ساعات بين الكتب، ص ٣٤٦.

(٢) انظر: قضية الشعر الجديد - محمد النويهي ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) انظر مثلا: حديث الأربعاء طه حسين ١/ ٣٠.

النفوس لائط بالقلوب... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستمتاع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النَّصب والسهرة، وسرى الليل، وحرَّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء، وذمامة التأميل... بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضّله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيل»^(١).

وهذا قاطع في أن الرجل يتحدث عن القصيدة التي طال بناؤها، وتعددت موضوعاتها، فتسلسلت تلك المواضيع بما يخدم الغرض الكلي، وهو إيصال الرسالة التي يريد الأديب، وإذا كانت القصائد التي بهذا الشأن من الطول والتنوع قد عللها ابن قتيبة فإن ما قلَّ منها لن نعدم له توجيهها، وهذا التوجيه إنما هو بعض من مرادات الشاعر المستكنة خلف صياغاته، وبناء قصيدته.

وقد نقل ابن رشيق رأياً شهيراً للحاتمي يتحدث فيه بوضوح شديد عن أن القصيدة يجب أن تكون بناءً واحداً متماسكا كخلق الإنسان، وقيام كل عضو فيه بمهمته مع تناسقه مع غيره من المهام فقال: «وقال الحاتمي: من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم، متصلاً به، غير منفصل منه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فتمت انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة، تتخون محاسنه، وتعفّي معالم جماله، ووجدت حذاق الشعراء، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان»^(٢). وهما بهذا الرأي لا يجدون في الشعر القديم تفككا واضطراباً.

ونحن على ثقة لا يخالجه شك أن اللغة العربية في القرآن الكريم بالغة الكمال، ولن يدانيها كلام لبشر مهما أوتي من البيان والفصاحة.

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ١/ ٧٤-٧٥

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني ٢/ ١٥٣-١٥٤.

ونحن نحاول في هذا البحث أن نستجلي أسرار وبيان آيات السجدة ، واضعين في أذهاننا إحكام وقوة بناء القرآن بيانيا، وأن الآية قد أثر فيها سياقها القريب، والبعيد، ومقاصد السورة الكلية.

ثم إن السياق الذي نرى له ذلك الأثر هو «تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال»^(١).

وفحوى ذلك أن تتلاحم الآيات في السورة الواحدة مهما طالت ، فنجد في كل آية، وفي كل مقطع ما يثني بما سبق أو سيلحق من آيات.

بل إن الزركشي يقول: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ، وثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها...»^(٢).

وقد طبق ملاحظته تلك عن السياق، وأثره على عدد من الآيات كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [١٨]، وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُوْمٌ كَفَّارٌ﴾ [٣٤].

ثم سأل سؤالا فحواه: لماذا خصصت آية النحل بوصف المنعم وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟ وأجاب ملاحظا سياق كل آية: «والجواب أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه فناسب ذكر ذلك عقب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته، وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه»^(٣)، وإن كان لنا أن نضيف إلى ما قاله الزركشي عن سياق الآيتين فإننا نلاحظ أن سياق آية إبراهيم ذكر قبلها الحديث صراحة عن كفر النعم كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوْا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، ثم ذكر في المقابل الذين آمنوا بالله تعالى، وكيف أن الله

(١) نظرية السياق القرآني: دراسة تأصيلية دلالية نقدية، د. المثني عبد الفتاح محمود، ص ١٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ١/ ٣٧.

(٣) السابق ج ١ / ص ٨٦

تعالى امتن عليهم بالثمرات، وتسخير الفلك، والأنهار، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، فناسب أن يذكر هنا كفر ابن آدم وجحده، أما آية النحل فكما قال الزركشي كان سياقها سياق إثبات ألوهية الله جل وعلا، ولم يسبق هذه الآية ذكر للأمم المكذبة كما في سورة إبراهيم. هذا فضلا عن أن سورة النحل ذكر فيها كثير من النعم؛ حتى إنها تسمى في بعض الروايات بسورة النعم^(١)، ففيها نعم متعددة بدءاً من خلق الأنعام ومنافعها، وإنزال الماء من السماء للشرب، وإنبات الزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب، وتسخير الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ثم تسخير البحر وما فيه من مأكّل، وزينة، وتسخير الأرض وما فيها من أنهار، وسبل... وكان ورود هذه النعم في أول السورة، ولم تسبق بآية كفران للنعم كما مر في سورة إبراهيم، ولأجل ذلك ناسب أن تختتم الآيات بالمنعم جل وعلا وهو (الغفور الرحيم)، ولا يناسبها أن يذكر فيها الكفر والظلم.

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٩/٤٦٤.

المبحث الثاني

بيان المقاصد الكلية للسور التي وردت فيها هذه الآيات

عندما نمعن النظر في السور التي وردت فيها هذه الآيات نجد أنها سور مكية إلا سورة الحج، فقد اختلف في كونها مدنية أو مكية، وهذه خاصية توجب النظر في السور المكية، وكيف أن من مقاصدها الشهيرة تثبيت العقيدة في النفوس؛ لأنها الدافع المؤثر في قبول التشريع بعد ذلك.

ولاشك أن زلزلة العقائد الفاسدة الموروثة لدى القوم آنذاك أمر في غاية الأهمية، ومن تزلزلت لديه تلك العقيدة الفاسدة الموروثة قمين به أن يتقبل التشريع بعد ذلك.

والسجود وإشاعته بين المؤمنين مما يزلزل العقائد الفاسدة، ويرغم أنوف الكفرة المعاندين؛ فليس الأمر أمر كلمة تقال، مع عظمها على الأنفس - وهي كلمة التوحيد - بل يصاحب ذلك سجود خاص ليس القصد منه الدخول في الصلاة مثلاً، ولكن سجود في كل آن وحين، وذلك من إشاعة وتثبيت العقيدة، خصوصاً أن الصلاة لم تفرض إلا حيناً أسري بالرسول عليه الصلاة والسلام قبل الهجرة بستين إلى ثلاث سنوات؛ فيكون سجود التلاوة الذي نُدب إليه في الفترة المكية تربية للمؤمنين لسجود آخر يفرض فرضاً.

كذلك نجد من المقاصد الكلية لهذه السور أنها تعنى بالتنويه بالقرآن الكريم، سواء كان ذلك في مطلع السور، أو في ثناياها قبل أو بعد آيات السجدة؛ فمثلاً في سورة الأعراف يقول تعالى في مطلعها: ﴿الْمَصَّ ۝١ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾، وفي سورة الرعد يقول تعالى: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾، وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

وفي سورة النحل نجد الأمر مختلفاً؛ فالتنويه بالقرآن الكريم لم يأت في مطلع السورة بل في ثناياها، وكان عن طريق سؤالين لفريقين ترتب على الإجابة عنهما عذاب وثواب، قال تعالى عن المستكبرين الذين سبقوا في الآية السابقة، أو كفار مكة كما نقله الألوسي في تفسيره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرِ الْأُولَىٰ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٤-٢٥﴾، وقال عن الفريق الآخر المؤمن: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا خَيْرٌ لِّذِينَ آمَنُوا أَلَا سَاءَ مَا يَمْقَامًا ﴿٣٠﴾﴾ وفي سورة مريم ذكر التنويه بالقرآن الكريم بعد آية السجدة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

وفي سورة الحج جاء التنويه قبل آية السجدة، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١١﴾﴾، وبعدها في أكثر من آية. ونعمة القرآن الكريم على العباد نعمة عظيمة جدا تستوجب شكر الله جل وعلا، ومن الشكر الحسي السجود له جل وعلا.

ثم إن المنهج العلمي يحتم علينا القول: بأن التنويه بالقرآن الكريم لا تختص به هذه السور بل ورد ذلك في عدد كبير من سور أخرى ليس فيها من آية من آيات السجدة، ومن ذلك سورة البقرة حيث يقول تعالى في مطلعها: ﴿الذَّٰرِ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾، وكذلك جاء التنويه بالقرآن في سورة الأنعام والأنفال ويونس، وفي غيرها من السور، والباحث عن فحوى هذا التنويه في هذه السور سيجد علاقة واضحة بينه وبين آياتها.

ثم وجدنا من مقاصد السور الكلية ذكر خلق الله جل وعلا، والتأكيد على الخلق العظيم الذي تلامس منته العباد؛ كخلق السموات، والأرض، واختلاف الليل والنهار: ففي سورة الأعراف يقول تعالى عن خلق السموات والأرض:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

ويقول تعالى عن تسخير الرياح: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ
حَقِّقْ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي سورة الرعد يقول تعالى عن رفع السماء وتسخير الشمس والقمر ومد
الأرض...: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الرِّيحِ الْهَبَّ وَالْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا
يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ
الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِيسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَاجِينَ يُجْعَلُونَ فِيهَا النَّهَارَ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَةٌ وَمِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُقْضَلُ بِعَصَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ۗ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

وكذلك في سورة النحل يقول تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾، ويقول تعالى ذاكرا نعمته على عباده بخلق الأنعام:
﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾، وتتوالى الآيات
بعد هذه لبيان كثير من النعم التي تفضل الله جل وعلا بها على عباده.

وفي سورة الحج تلابس تلك المخلوقات آية السجدة مباشرة.
وفي سورة الفرقان يقول تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

وفي سورة مريم اتخذ الأمر طريقا آخر ببيان قدرته جل وعلا في كثير من الخلق
الذي يصادم النواميس التي يعرفها البشر: فزكريا عليه السلام يسأل الله جل وعلا الولد

بعد أن بلغ من العمر عتيا فيستجيب له سبحانه يقول تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نَبْشُرُكَ
بِعُلْمٍ أَسْمُهُ، يُحْيِي لَمْ يَجْعَلْ لَهُ، مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وقصة عيسى عليه السلام فيها ما يصادم ما عهد الناس في شأن الحمل والولادة. ولا شك أن ذكر هذه المخلوقات العظيمة له أثره العظيم أيضا في قضية السجود، وأحقيتها لله جل وعلا الذي خلق هذه الأجرام، وجعل فيها مصالح كبيرة لخلق من البشر، وكما قلنا بالنسبة لورود التنويه للقرآن الكريم في غير السور التي وردت فيها آيات السجدة، فكذلك خلق الله تعالى الذي ذكرنا والذي لم نذكر ورد في غير سورنا التي نقف عندها، والباحث المدقق يجد علاقة وإحكاما بين ورود ذلك الخلق العظيم ومقاصد وسياقات تلك السور.

المبحث الثالث

أثر السياق في ربط آيات السجدة بسورها

أ / موضع آية السجدة وصلته بالسياق:

عندما ننظر في المقاصد الكلية للسور التي فيها آية سجدة نجد أن تلك المقاصد أفضت لبناء معين لتلك الآية؛ حيث تختلف في بنائها عن آية أخرى في سورة أخرى؛ ففي سورة الأعراف والإسراء جاءت آية السجدة في نهايتها، ولو أمعنا النظر لوجدنا علاقة ظاهرة بين المطلع وآيتي السجدة في كلتا السورتين:

ففي سورة الأعراف قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾.

وقد جاء في مطلع السورة الحديث عن القرآن الكريم كما سبق أن أشرنا مع ملاحظة ذكر ضمير المخاطب وهو الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿الْمَخَّصَّ ١﴾ كِنْتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأعراف: ١-٢]، ومع ضمير المخاطب ضمير المخاطبين أيضا في قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُوهَا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿[الأعراف: ٣]، وفي آية السجدة في آخر السورة لا يغيب هذا الضمير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أما ضمير المخاطبين في المطلع فإنه فحوى الذين سجدوا لله تعالى ولم يستكبروا كما في آية السجدة.

ثم نلاحظ في المطلع الحديث عن المؤمنين الذين أنزل إليهم القرآن إنذارا وذكرا، فالرسول عليه الصلاة والسلام أمر أن يتبع هذا القرآن، ولا يتبع ما دونه من أولياء، وفي آية السجدة ذكرت هذه الأصناف نفسها؛ حيث عدم الاستكبار، وهو غاية الذل لله تعالى، ولا شك أن عبادته، والإيمان به سبحانه آية على الخضوع له والتذلل، ثم نجد في آية السجدة تقديسه وتنزيهه سبحانه، وهذا ديدن المؤمنين، ثم توج ذلك كله بالسجود، وهو أقصى عمل حسي مادي يظهر فيه التذلل له سبحانه.

مع ملاحظة أن هناك من يرى أن فساد بني إسرائيل الأول كان في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، والفساد الثاني لما يأت بعد، وهو ما نرى بوادره تلوح من تجمعهم في بلاد المقدس، قال ذلك الشيخ الشعراوي^(١)، فإذا أخذنا بهذا الرأي، وهو جد قريب من الواقع فإن ما يقوله الساجدون من تحقيق الوعد: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ سيشير إلى الوعد بالقضاء على بني إسرائيل بالفساد وما سيحقق بهم ، ولا يعارض هذا الرأي السابق وهو الوعد بإنزال القرآن وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذا وقد سبقت آية مهّدت لهذا السجود، وما يقول فيه الساجدون من التسبيح حيث تسبّح له سبحانه السموات السبع ومن فيهن... قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، مع ملاحظة تكرار لفظ التسبيح في هذه الآية.

وهكذا نجد الآية حلقة ضمن سلسلة من المعاني المنداحة شيئاً فشيئاً؛ فإذا كانت السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ، والوجود كله يسبح فإن تسبيح الذين أتوا العلم تحصيل حاصل؛ لأنهم ضمن هذا الكون، ثم في تخصيصهم بعد العموم الموجود في هذه الآية دلالة على شرف من أوتي العلم. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

ويرى ابن عاشور أن إسناد التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق يدل على أنه مستعمل في الدلالة على التنزيه بدلالة الحال^(٢)، وعليه يكون التسبيح هنا تسبيح تنزيه، والتسبيح في آية السجدة تسبيح تنزيه بدلالة الحال حيث السجود، وبدلالة المقال حيث النطق به.

(١) تفسير الشعراوي ١٤/٨٣٥٣، ٨٣٦٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور مج ٧، جزء ١٥/١١٤.

وإذا كانت آية السجدة في سورة الأعراف قد جاء فيها ذكر عدم التكبر من عباد الله، فلقد تكرر هذا الخلق القبيح اثنتي عشرة مرة في هذه السورة^(١)، وكان أول ورود لهذا الخلق الذميم في قصة إبليس، وهي أس الاستكبار ومنبعه، قال تعالى بعد أن أمر إبليس بالسجود فرفض: ﴿قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وانظر بقية الآيات: ٣٦-٤٠-٤٨-٧٥-٧٦-٨٨، ولهذا تقدم هذا اللفظ على السجود في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، بينما تأخر عنه في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢)، لأن هذه السورة ليس فيها ذكر لقصة إبليس مع أبينا آدم، ولم يتكرر فيها لفظ التكبر إلا أربع مرات فقط، وكذلك تأخر هذا اللفظ في آية السجدة من سورة السجدة، حيث لم يوجد هذا اللفظ إلا في تلك الآية، ولم تشتمل السورة على قصة إبليس مع آدم عليه السلام، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [١٥].

وعن هذه الآية الأخيرة يقول البقاعي عن سياقها القريب: «ولما كان قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠] قد أشار إلى أن الحامل لهم على الكفر الكبر، وذكر سبحانه أنه قسم الناس قسمين لأجل الدارين، تشوفت النفس إلى ذكر علامة أهل الإيمان كما ذكرت علامة أهل الكفران، فقال معرفاً أن المجرمين لا سبيل إلى إيمانهم...: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على عظمتنا ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا﴾ من أي مذكر كان، في أي وقت كان، قبل كشف الغطاء وبعده ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي بادروا إلى السجود مبادرة من كأنه سقط من غير قصد^(٢)، وهذه الملاحظة من البقاعي مردها لختم الآية بنفي الاستكبار.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة: كبر

(٢) نظم الدرر في تناسب السور للبقاعي ٥٧/٦.

وكذلك نستطيع توسيع سياق الآية لنجد القرآن الكريم يذكر الذين أجمروا وقد نكست رؤوسهم عند ربهم، تتشوف أنفسهم للعودة للدنيا ليؤمنوا بعد أن أبصروا الحقيقة، وجاءت آية السجدة بعد عرض هذا الفريق لتظهر الفريق المقابل وهم الذين آمنوا حقاً، وتشربوا الإيمان المفضي للسجود له تعالى، فخضعت رؤوسهم حينئذ إجلالاً لله تعالى وخشية، واستحقاقاً، ولم تتنكس كرؤوس من كفر واستكبر، وجاءت الآية بأداة القصر (إنما) وهي تشير إلى شيوع هذه الخاصية في المؤمنين، وهي تشبعهم بإجلال الله تعالى، وكأن ذلك من المسلمات، أو ما ينبغي أن يكون كذلك، يقول الإمام عبد القاهر عن (إنما): «اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء خيراً لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة. تفسير ذلك أنك تقول للرجل: إنما هو أخوك وإنما هو صاحبك القديم لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويُقرُّ به. إلا أنك تريد أن تنبهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة صاحب... ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]... كل ذلك تذكيرٌ بأمرٍ ثابتٍ معلوم. وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويدعى إليه. وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب... وأما مثال ما ينزل هذه المنزلة فكقوله:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّاتٌ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
ادعى في كون المدوح بهذه الصفة أنه أمرٌ ظاهرٌ معلومٌ للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها المدوحين أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهبوا بها وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد^(١). ولهذا يقول الرازي عن بداية الآية ب (إنما): «إشارة إلى أن الإيمان بالآيات كالحاصل، وإنما ينسأه البعض فإذا ذكر به خر ساجدا له»^(٢).

(١) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٣٠-٣٣١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٥٥٤/١٢.

كذلك نستطيع أن نبعد بسياق الآية إلى مطلع السورة ؛ حيث يقول الطاهر بن عاشور عن آية السجدة: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [١٥]: استئناف ناشئ عن قوله: ﴿ أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ ﴾ الآية [٣]، تفرغ المقام له بعد أن أنحى بالتقريع والوعيد للكافرين على كفرهم بقاء الله، بما أفادت اسمية جملة ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴾ الآية [١٠] من أنهم ثابتون على الكفر بقاء الله دائمون عليه، وهو مما أُنذرتهم به آيات القرآن، فالتكذيب بقاء الله تكذيب بما جاء به القرآن فهم لا يؤمنون، وإنما يؤمن بآيات الله الذين ذكرت أوصافهم هنا^(١). فإذا كان أولئك الفريق يقولون بافتراء القرآن فهنا فريق آخر، مؤمن، ابتعد عن دائرة هذه الفرية مراحل عظيمة تمثلت في أنهم إذا ذُكروا به من أي مذكّر خروا سجدا لمنزله جل وعلا، ثم إنهم لا يحتاجون لكبير عناء في بلوغهم هذه المرتبة الإيمانية، فبمجرد التذكير يخرون ساجدين، وكأن الآيات راسخة في العقول ؛ فالتذكير وحسب يجعل تلك الأنفس لا تجد الإيـان بتلك الآيات، ولكن تبادر إلى الخضوع لله تعالى مباشرة.

وهذه حلقات يفضي بعضها لبعض تربط أجزاء السورة الواحدة، وتظهر السياق الذي يأخذ بحجز الآيات ليكون ناظما لها في سلك بياني بديع.

وفي سورة الرعد نجد علاقة خفية بين آية السجدة ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [١٥]، ومقاصد السورة الكلية؛ فلقد جاءت الآية في سياق احتدم بذكر قدرة الله جل وعلا، وعظيم سلطانه؛ فهناك رفع السماء بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر، ومد الأرض وما جعله فيها من الخيرات، وهو سبحانه يعلم ما تحمل كل أنثى على الإطلاق، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وقرىبا من الآية ذكر تعالى كيف يظهر قهره سبحانه للرعـد فيسبح

(١) التحرير والتنوير، جزء ٢١، ١٠/ ٢٢٧.

بحمده، والصواعق تُرسل بأمره على من يشاء، وهي تعلق الرؤوس ومع ذلك هي موكلة بقوم دون آخرين، أو بإنسان دون آخر.

ومن هذا قهره وقدرته جدير سبحانه بأن يسجد له من في السموات والأرض. كذلك آية السجدة نفسها فيها بديع خلقه تعالى؛ حيث يسجد الظل، وسجود الظل نابع من إبداع خلق الله جل وعلا المنبئ عن أحقيته تعالى بالسجود؛ «ولو جعل الله الشمس شمسين متقابلتين على السواء لانعدمت الظلال، ولو جعل وجه الأرض شفافاً أو لامعاً كالماء لم يظهر الظل عليه بيننا، فهذا من رموز الصنعة التي أوجدها الله وأدقها دقة بديعة»^(١).

ثم إن هذه الآية هي الوحيدة من بين آيات السجدة التي فيها السجود الطوعي وحال الإكراه، ولو راجعنا السورة قبل آية السجدة هذه لوجدنا أن السورة تشتمل على ثنائيات متضادة مثل: الله يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، وسواء لديه من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، وهو سبحانه من يرينا البرق يخافه قوم ويطمع فيه آخرون...، هذا قبل آية السجدة، وبعدها كذلك استمرت هذه الثنائية مثل قوله تعالى: ﴿... قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [١٦]، وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [١٩-٢٠] ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [٢٦].

وعلى تلك الشاكلة جاء التضاد بين الطوع والكراه، وقد قال أبو حيان بعد أن ساق عدداً من الأقوال في قضية السجود الطوعي والكراهي: «والذي يظهر أن مساق هذه الآية إنها هو أن العالم كله مقهور لله تعالى، خاضع لما أراد منه، مقصور

(١) التحرير والتنوير جزء ١٣، ٧/١١١.

على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدر تعالى، فالذين تعبدوهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود^(١)، وهو على ذلك يحمل (من) الخاصة بالعقلاء على العموم.

وربما وجدنا المقاصد الكلية للسورة تشي ببناء آية السجدة بناء خاصاً؛ فسورة مريم تتابع فيها ذكر الأنبياء في سبع وخمسين آية، ثم جاءت آية السجدة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨]، مشيرة لكل ما سبق باسم الإشارة (أولئك) ومركزة مع ذلك على الذرية المؤمنة التي هداها الله واجتباها؛ بدأت السورة بالحديث عن الأنبياء من لدن زكريا إلى إدريس وبينهما: يحيى وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، عشرة أنبياء توالى ذكرهم حتى أطلت آية السجدة تشير إليهم باسم الإشارة: أولئك. وقد توقف ذكر الأنبياء عند إسماعيل عليه السلام، وتلك كما يقول سيد قطب هي: «المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ نُوحٍ﴾ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾. فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين: يعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل. وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين»^(٢).

ثم إن في السورة إشارات متعددة تتحدث عن الذرية الصالحة سواء من خلال دعاء زكريا: ﴿كَهَيْعَصَ ۝١ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾ إِذ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِئُنِي وَرِئْتُ مِنَ الْإِسْطِاقِ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبِّي بِهَذَا صَبْرًا ۝٦﴾.

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٦٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٣١٤.

أو من خلال ذكر حمل وولادة المسيح عليه السلام، أو من خلال اعتزال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه لما أصروا على ضلالهم فكانت العطية من الله جل وعلا له: ﴿فَلَمَّا أَغْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

فعندما تأتي الذرية في آية السجدة يكون ذلك أمرا متساوقا مع سياقها في السورة.

ونجد الأمر في آية الحج الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾، يرتبط بسياق قريب، وآخر بعيد؛ فسياقها القريب أنها قد وقعت بين «آيتين سابقة عليها ولا حقة لها، وكلتا الآيتين تنصان على افتراق البشر في مجال الطاعة والإيمان، أما هي فقد نصت على أن جميع المخلوقات - غير الإنسان - اجتمعت على الانقياد لله»^(١).

أما سياقها الأبعد فقد قال البقاعي: «ولما كان جميع ما تقدم في هذه السورة دالاً على أنه على كل شيء قدير، وأنه يفعل ما يريد، وختم ذلك بأنه بكل شيء عليم لم يغيب ولا يغيب شيء عنه، فاقتضى ذلك قيوميته، وكان بحيث يستعظم لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم، قرر ذلك في جواب من كأنه سأل فهي في معنى العلة»^(٢).

و لو فتننا عما يقوله البقاعي في السورة لرأيناه مصيباً فيما قال؛ فأنت تجد التحذير من الساعة ولم تُبن الآية على التأكيد لقيامها ولكن على التحذير منها، وكأن قيامها من المسلمات وهذا فرط القدرة له جل وعلا، وتجد سلسلة خلق الإنسان منذ أن كان نطفة حتى يصبح في أرذل العمر، وكذلك تجد الآية تلو الآية الدالة على الإحياء بعد الموت، والعذاب الذي ينتظر أهله.

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم الطعني ٢/ ٣٩٠.

(٢) نظم الدرر ٦/ ٥٧.

ولا شك أن هذه الأفعال دليل على قدرته جل وعلا وقيوميته.

ثم قبل آية السجدة آيات متعددة تتحدث عن الإنسان الذي تنكب طريق الهداية وأخذ يجادل في الله بغير علم، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (٢) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ.

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِن أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْفَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ (١٣).

آيات متتالية تظهر كيف تنكب بعض البشر طريق الهداية، وتكبروا وجادلوا في الله بغير علم، واتخذوا الدين صفقات تجارية إن ربحت فيها ونعمت وإلا انقلب على عقبيه.

يقول سيد قطب عن مجيء هذه الآيات في خضم عرض أهوال يوم القيامة: «في ظل هذا الهول المروع يذكر أن هنالك من يتناول فيجادل في الله، ولا يستشعر تقواه... والجدال في الله، سواء في وجوده تعالى، أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة ما من صفاته.. الجدال في شيء من هذا في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعاً، والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه.. ذلك الجدال يبدو عجباً من ذي عقل وقلب، لا يتقي شر ذلك الهول المنزل المحتاح» (١).

وإذا كان هناك من لا يتقي الله جل وعلا في خضم تلك المشاهد المروعة لذلك اليوم العظيم فإن هناك فئات من الخلق لا حدود لها أسلمت، وانقادت انقياد تذل

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٠٨.

وخضوع، أفضى بها للسجود له تعالى: «ويتدبر القلب هذا النص، فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك. وإذا حشد من الأفلاك والأجرام. مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم. وإذا حشد من الجبال، والشجر، والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان.. إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله، وتتجه إليه وحده دون سواه. تتجه إليه وحده في وحدة و اتساق. إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] فيبدو هذا الإنسان عجيباً في ذلك الموكب المتناسق»^(١).

ولهذا حمل الطاهر بن عاشور هذه الآية على آية رقم [١٢] وهي قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، وقال بأن ما بينهما استطراد و اعتراض^(٢)، فإذا كان هناك من يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه فإن الكون كله - بما عدد الله تعالى من مخلوقات تنتظم السموات والأرض وما فيهما - الكون كله ساجد موحد له تعالى، ومما يدعم هذه الحقيقة الاستفهام في أول الآية ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهي رؤية من كل من يستطيع الرؤية، فلا تخص واحداً دون آخر، وهذا العموم يدل على وضوح هذا الأمر، وانكشافه لكل أحد، ولن يجد أحد إجابة تصادمه.

ب/ لفظ الجلالة والصفات في آيات السجدة:

عندما ننظر في السياق العام للسور التي وردت فيها آيات السجدة نجد ذلك السياق مشتملاً على وجود بعض الأسماء أو الصفات لله جل وعلا وقد تصدرت تلك الآيات، وهي مزاجية بين اسم الذات العلية (الله) أو صفة الربوبية، أو صفة الرحمن، فالسياق العام يفرض اسماً بدل صفة، وصفةً بدل أخرى؛ حيث نجد كثرة ورود الاسم أو الصفة هي التي تحتم وجودها في آية السجدة؛ بالإضافة إلى معاني

(١) السابق ٤/٢٤١٤.

(٢) التحرير والتنوير، جزء ١٧، ٨/٢٢٦.

دقيقة تختص بها ضمن كل آية؛ ففي سورة النحل ورد لفظ الجلالة فيما يزيد على ثمانين آية، وهذا يعني أكثر من ثلثي السورة التي تبلغ آياتها مائة وثمان وعشرين آية، وعليه جاءت آية السجدة فيها مبدوءة بلفظ الجلالة: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٥٠).

كان مطلع السورة يتحدث عن تسخير أنواع كثيرة جدا من المخلوقات، وقد تتابعت ست عشرة آية تذكر ذلك التسخير من مثل: خلق الأنعام، لمنافع كثيرة، وخلق الخيل، والبغال، والحمير للركوب والزينة، وإنزال الغيث، وما فيه من الخيرات، وإنبات الثمار المأكولة، وتسخير الليل، والنهار، والشمس والقمر، وتسخير البحر وما فيه من الخيرات.. الخ الآيات من [٣-١٦].

وكانت جل الآيات تربط تلك المنن بالناس؛ حيث تكررت العلة من خلق وتسخير تلك المخلوقات وأنها مربوطة بالإنسان في ما يقرب من عشرة مواضع، ولا شك أن ذلك تمهيد بديع، ومنطقي أن من خلق هذا الخلق الذي منته على الناس ظاهرة حقيق بالسجود له، وهو سجد ينتظم كل الخلائق أخذًا من العموم الموجود في الآية، سواء كان عموماً لغويا مثل إيثار (ما) الموصولة على (من) مثلاً، أو كان عموماً من جهة أخرى؛ فنحن لم نر شيئاً مما يدب في السماء، ورأينا بعض ما يدب في الأرض، وبعضه عنا خفي، وعليه فنحن نقيس ما يدب في السماء على ما يدب في الأرض عدداً مما نعرف ومما نجهل، وإن كان الزمخشري قد فصل كثيراً في قوله تعالى: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ ورأى أنها قد تكون بياناً لما سبقها مباشرة أو لما في الأرض أو لهما معاً.. فقال: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ يجوز أن يكون بياناً لما في السموات وما في الأرض جميعاً، على أن في السموات خلقاً لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بها في السموات: الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بياناً لما في الأرض وحده، ويراد بها في السموات: الملائكة وكرّر ذكرهم

على معنى: والملائكة خصوصاً من بين الساجدين؛ لأنهم أطوع الخلق وأعبدتهم. ويجوز أن يراد بها في السموات: ملائكتهن. وبقوله والملائكة: ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم»^(١).

و في سورة الرعد جاءت آية السجدة مصدرة بلفظ الجلالة: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا كَبَسِطٌ..﴾، وإذا بحثنا عن هذا الاسم الجليل وجدناه بارز الحضور في السورة كلها؛ حيث تكرر في أكثر من أربع وعشرين آية^(٢) من ثلاث وأربعين آية هي عدد آيات السورة، أي أكثر من خمسين في المائة، بل إنه قد تكرر قبل آية السجدة ست مرات، بينما جاء لفظ الربوبية في مطلع السورة، وتوالى أيضاً ست مرات، ثم إن الآيات التي جاءت قبل آية السجدة مباشرة كلها تشي بالالوهية الحقبة المنفردة بأدق خفايا الخلق يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۗ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِإِيْلٍ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَّالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَكُوتُ مِن خَيْفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

وقد ذكر ابن عاشور أن الآية قد بدئت بلفظ الجلالة (الله) بدل الضمير «تبعاً للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصلية»^(٣)، وهو يقصد بذلك أن السورة

(١) الكشاف، للزمخشري ٤١٢/٢.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (اله).

(٣) التحرير والتنوير، جزء ١٣، ٧/١١١.

اشتملت على آيات كانت فواتح أغراض مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾، وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَّادُ...﴾، وآية السجدة تحمل هذا الزخم لغرض أصلي وهو استحقاق الله جل وعلا للوجود على كل الأحوال بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى مطلق قهره وقدرته تعالى، بينما جاءت آيات أخرى فُرِّعَت على هذه الآيات التي تحمل تلك الأغراض، ولهذا جاءت دون البدء بلفظ الجلالة بل بالضمير، انظر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وهكذا الأمر في سورة الحج حيث تكرر هذا الاسم العلي خمسا وسبعين مرة، بينما لم يأت لفظ الربوبية إلا في ثمان مواضع^(١)، ولهذا جاءت آية السجدة مصدرة بلفظ الجلالة: ﴿الَّذِي تَرَأَتْهُ أَنتَ اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾.

فهذه الآية هي الوحيدة بين آيات السجدة التي فيها هذا التعداد الكبير للساجدين، «وهي من أظهر آيات تمجيد الله في القرآن... فقد عدت في تفصيل حكيم أن الكون كله منقاد لله عز وجل، وكل مخلوقاته تسجد له، وتعبده، سجودا مناسبا لها»^(٢).

وربما وجدنا أنه مع كثرة ورود لفظ الجلالة (الله) موازنة مع صفة (الربوبية) إلا أن الأخيرة هي التي تأتي ضمن آية السجدة، وذلك في سورة واحدة وهي سورة الأعراف، ولا شك أن هذا الورد له مبرراته البلاغية؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾، فقد تكرر لفظ الجلالة

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة/ اله، ورب.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٢/ ٣٩٠.

(الله) ستين مرة، بينما جاء لفظ الربوبية في خمسين موضعاً^(١)، وهي أعداد جد متقاربة، إلا أن علوق لفظ الربوبية بالآيات، وتكراره في بدء السورة جاء من خلفية أن مطلع السورة فيه عناية وحفظ من الله جل وعلا لعباده؛ حيث المنة العظيمة بإنزال الكتاب، وكيف أهلكت الأمم، ووضع الميزان الحق، فهناك من ثقلت موازينه، وهناك من خفت موازينه، ولا شك أن لفظ الربوبية متساوق ذكره مع هذه المعاني، ثم يأتي الخلق وهو من أخص خصائص الربوبية، ثم تأتي العناية الربانية بابن آدم حيث حذره تعالى من عدوه اللدود إبليس، وكيف أظهر لابن آدم هذه العداوة حتى لا تلتبس... هذه سياقات لفظ الربوبية في مطلع السورة، وفي خاتمتها نجد كذلك أن لفظ الربوبية تكرر قبل آية السجدة ثلاث مرات، ولو دققنا قليلاً في سياقه هنا لرأينا أن منة القرآن الكريم والوحي ظاهرة عياناً بياناً هنا، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

فالخطاب هنا للرسول ﷺ، والربوبية تناسب ذكر الله جل وعلا في كل آن وحين؛ حيث هي الصفة الظاهرة التي تحيط بالإنسان في خلقه ورزقه، فكما أن ذلك كذلك فكذلك ذكر الله جل وعلا يجب أن يكون ملازماً للإنسان.

ومن الصفات التي كثرت في السورة فجاءت في آيات السجدة صفة (الرحمن) ففي سورة مريم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾، وأول ورود لهذه الصفة العلية في قوله تعالى على لسان مريم: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيئًا ﴿١٨﴾﴾، وإذا رجعنا قليلاً للسورة فإننا نجد

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (الله) ومادة (رب).

هذه الصفة تتكرر كثيرا فيها حيث بلغت ست عشرة مرة^(١)، بالإضافة إلى أن الله جل وعلا قد امتنّ على جميع الأنبياء الذين ذكرهم في هذه السورة قبل الآية بعظيم المنن؛ حيث الرفعة، والاختصاص بالنبوة، والاصطفاء، وكل ذلك من رحمته تعالى بهم، فلا شك أن صفة الرحمن التي أضيفت إليها الآيات هي الأنسب والأليط بالسياق. بل إننا نجد أن مفهوم الرحمة عموما شائع في هذه السورة؛ فمثلا: رحمته تعالى في مطلع السورة بذكرها **الرحمن الرحيم**: ﴿كَهَيَّصَ ۝١ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرًا ۝﴾، حينما تضرّع إليه بطلب الولد، ورحمته تعالى بيحيى نفسه إذ جعله نبيا، ورحمته تعالى بمريم والنفخ فيها بغلام: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا ۝﴾ وذلك بعد أن عازت هي بالرحمن: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾، ثم نجد الرحمة شائعة في دعوة إبراهيم **الرحمن** لأبيه، وحينما اعتزله وقومه رحمة الله تعالى ورزقه الولد على الكبر: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۝١٢٠ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝﴾.

وفي سورة الفرقان نجد نفس الصفة العلية له سبحانه ضمن آية السجدة، وقد وردت في السورة خمس مرات، ومنها تحديدا أربع مرات قبل وأثناء وبعد آية السجدة يقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۝ وَكَفَى بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ۝٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ۝٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٦٠ نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾.

وهذه الصفة له سبحانه جاءت في خضم آيات عظيمة نقلت أباطيل المشركين من اتخاذ الشريك مع الله جل وعلا، وعبادة الأصنام، واتهام الرسول الكريم بأن الذي يتلى عليه أساطير الأولين، وأن الرسول لم ينزل معه ملك يؤيده، وهو يمشي

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة رحم.

في الأسواق، ويأكل الطعام، بل طلبوا أكبر من ذلك أن تنزل عليهم الملائكة، وبالغوا في تكبرهم حينما قالوا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا...﴾ ﴿إلخ، ومع هذا التكبر والجبروت والإيغال في الكفر واستحقاق العذاب إلا أن الله جل وعلا قال في ختام أباطيلهم العظيمة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَكِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٣٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٣٦﴾﴾، وهذا أول ورود لهذه الصفة العلية، وهي في هذا السياق لفظة تطمين، وتسلية لعباد الله جل وعلا في هذا الجو العظيم من ذكر أباطيل الكفار في حقه تعالى، وحق نبيه، وحق قرآنه بأنه سيكون رحيمًا بعباده في ذلك اليوم، الذي يعسر ويصعب على الكافرين، قال الألوسي: «وإيراده تعالى بعنوان الرحمانية للإيدان بأن اتصافه عز وجل بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي وكان ذلك اليوم - مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ في الرحمة بعباده - شديدًا على الكافرين»^(١).

بل إن آية السجدة هنا وما فيها من صفة الرحمة المتكررة هي التي فتحت الحديث حتى نهاية السورة؛ حيث كانت آية السجدة حادثة على الانقياد والخضوع لله تعالى بأقوى ما يعبر عن ذلك كله وهو السجود له سبحانه، وحينما تهكم المتهكمون وسخروا كان لابد من بيان الفريق الآخر وهو الفريق المؤمن الذي ينقاد لله سبحانه، وأضافهم سبحانه لصفته العلية (عباد الرحمن) أما الفريق الآخر فكما يقول البقاعي: «ولما ذكر عباده الذين خذلهم بتسليط الشيطان عليهم فصاروا حزب الشيطان، ولم يضيفهم إلى اسم من أسمائه، إيذاناً بإهانتهم لهوانهم عنده، وهم الذين صرح بهم قوله أول السورة ﴿نَذِيرًا﴾ وختم بالتذكر والشكر إشارة إلى عباده الذين أخلصهم لنفسه، وأشار إليهم سابقاً بتخصيص الوصف بالفرقان، فأتبع

(١) روح المعاني للألوسي ١٩/١١.

ذلك ذكرهم، فقال عاطفاً على جملة الكلام في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾^(١). بينما شرف عباده الخالص بهذه الصفة العلية، وهذا فارق سياقي بديع وذلك باختيار الصياغات والتراكيب التي توحى بالمراد إيجاءً.

وقد ذكر الطاهر بن عاشور أن هذه السورة تقوم على دعائم ثلاث، وذكر منها الدعامة الثالثة وهي التي تأتي عقب آية السجدة مبدوءة بقوله تعالى ﴿نَبَارَكُ﴾ فقال: «الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله، وتفرد بالخلق، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلهية الأصنام، وإبطال ما زعموه من بُنوة الملائكة لله تعالى»^(٢)، ولا يوجد ضمن هذه الصفات الثمان لعباد الرحمن حديث عن البنوة المزعومة لله تعالى، ومع ذلك فكل هذه الصفات كانت ضمن ذكر الفريق الآخر الذي آمن بالله وخضع له في مقابل الفريق الذي نفر واستكبر ولم يسجد لله.

ومن الإشارات التي تدل على أن هذه الآيات عاطفة النظر لآية السجدة السابقة ما ذكره الله جل وعلا في قوله أولاً: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وغيرهم تُرك دون إضافة، وثانياً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾^(١٤)، وهي واضحة في الدلالة على خضوع هذا الفريق عندما نفر الفريق الآخر واستكبر.

وثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾^(١٥) بل خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم كما في سورة السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(١٥).

(١) نظم الدرر ٦ / ٣٣٤.

(٢) التحرير والتنوير ٩ / ٣١٤.

المبحث الرابع

الخصائص الأسلوبية لآيات السجدة

من خلال تتبع آيات السجدة التي وقفنا عندها نجد خصائص أسلوبية فيها تدعم بيان القرآن الكريم، وتظهر مدى انسجامه مع فحوى الآية الدالة، أو الأمر بالسجود؛ ففي آية الأعراف يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢٠٦).

يظهر التأكيد في أول الآية مقدار الاحتفاء بهؤلاء الملائكة الذين أحببتوا الله تعالى، ولم يستكبروا عن عبادته، وقدسوه تعالى، وسجدوا له، يقول الطاهر بن عاشور عن التوكيد إنه: «لمجرد الاهتمام بالخبر لا لرد تردد أو إنكار لأن المخاطب منزّه عن أن يتردد في خبر الله تعالى»^(١).

كما أن التأكيد فيها يتلاقى مع التأكيد قبلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٠١)، فكما جاء التأكيد على أن المتقين يعودون إلى الله تعالى سريعا فيصرون طريقهم، فكذا شأن الذين عنده جل وعلا لا يستكبرون عن عبادته، بل يسبحونه، ويسجدون له، فسرعة الامتثال ظاهرة في كل من المتقين والذين عند الله في آية السجدة.

أما العطف في هذه الآية فهو يظهر كل خصلة من هذه الخصال قائمة برأسها أخذا بالتغاير الموجود في العطف بالواو، ثم تظهر المناسبة بين هذه الجمل؛ فالذين لا يستكبرون عن عبادة الله ينزهونه ويقدمونه تعالى، ثم تكون الخاصية التي يفضي إليها ذلك كله هي السجود، بل سجود لا يكون لغيره تعالى «يختصونه بالعبادة، لا يشركون به غيره»^(٢).

(١) نفس المصدر، جزء ٩، ٥/٢٤٣.

(٢) الكشاف/٢/١٤٠.

وفي سورة مريم يقول البقاعي عن العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْنَبْنَا﴾ في آية السجدة: «وعطف الأوصاف بالواو إشارة إلى التمكن فيها»^(١)، وفي نفس السورة يقول عن قوله تعالى: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ «فوصفهم بسرعة الخشوع من ذكر الله الناشئ عن دوام الخضوع و الناشئ عنه الإسراع بالسجود في حالة البكاء، وجعلها حالتين بالعطف بالواو لعراقة المتحلي بهما في كل منهما على انفراده»^(٢).

أما الأفعال التي جاءت في آيات السجدة فهي الفعل الماضي، والأكثرية للمضارع، ولها شأن عظيم في بيان القرآن الكريم في هذه الآيات؛ فخاصية الفعل عموماً هي التجدد والحدوث، أما المضارع ففيه تصوير الأحداث أمام من يقرأ هذه الآيات في كل آن وحين، وفي تصوير حدث السجود، أو ما يصاحبه من البكاء والتسبيح والخروج... الخ أمام من يقرأ هذه الآيات حث من خلال الصياغة خفي على هذا العمل الشريف الذي يرفع صاحبه، ويزكي نفسه، إضافة لما في الفعل المضارع من دلالة على التجدد والحدوث، ولا شك أن ذلك ديدن المؤمنين في كل وقت، يتجدد منهم الخضوع، والسجود، والبكاء له جل وعلا.

جاء الفعل المضارع في آية الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، والحج.

أما في سورة الإسراء فقد تكررت الأفعال المضارعة في الآية ست مرات: (يتلى، يجرون، ويقولون، ويجرون، يبكون، ويزيدهم) وقد لمس الألوسي في تفسيره شيئاً من فقه أحد هذه الأفعال وهو: (يبكون) قال: «ولما كان البكاء ناشئاً من الخشية، الناشئة من التفكير، الذي يتجدد جيء بالجملة الفعلية المفيدة للتجدد»^(٣)، وقال

(١) نظم الدرر ٤/ ٥٥٤.

(٢) السابق ٤/ ٥٥٥.

(٣) روح المعاني ١٥/ ١٩٠.

البقاعي: «وعبر في البكاء بالفعل إشارة إلى تجرده في بعض الأحيان لما لهم في بعضها من السرور ببعض ما أبيح من الملاذ»^(١).

وهذا يعني أن التعبير بالاسم في مثل هذه السياقات له دلالة مغايرة لمسها البقاعي حين رأى أن بعض التلذذ بالمباحات يمنع من ديمومة البكاء، وهو ما وجدناه مثلاً في سورة مريم؛ حيث يقول جل علا: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فجاء البكاء بالاسم لا بالفعل، وإذا بحثنا عن الفرق بين الآيتين فإن عينة الساجدين هنا هم الأنبياء، وصفوة الخلق، بينما هم في سورة الإسراء مثلاً ليسوا هم أولئك، فإضافة لما لاحظته البقاعي فإن البشر يعترهم بعض الفتور، وتغشاهم غاشية الشهوات المفضية لشيء من النسيان، ثم تؤوب إليهم نفوسهم المتعلقة بالله تعالى، وخشيته فتكون العودة للتذلل والخضوع له جل وعلا. وهو أمر وجدناه في سورة السجدة حيث جاءت صياغات فعلية (خروا، وسبحوا، لا يستكبرون) ضمن آية السجدة وذلك لعينة الساجدين التي تعترها غاشية من الفتور والضعف ثم تؤوب إليها التقوى المفضية للتذلل حيث السجود له سبحانه؛ فناسب مجيء الفعل معها، بينما ناسب مجيء الاسم مع صفوة الخلق، وكملتهم.

ولكن البقاعي في سورة مريم لاحظ أن حال الأنبياء مع قومهم لا يناسبه ما قال من ديمومة البكاء التي هي دلالة الاسم التي قال عنها: «وعبر بالاسم في كل من السجود والبكاء، إشارة إلى أن خوفهم دائم كما أن خضوعهم دائم لعظمة الكبير الجليل، لأن تلك الحضرة لا تغيب عنهم أصلاً»^(٢)، فليس حال الأنبياء هو البكاء الدائم مع قومهم فقال معللاً ذلك: «وإن حصل غير البكاء فللتأنيس لمن أرسلوا إليه ليوصلوه إلى قريب من ربتهم بحسن عشرتهم على تفاوت المراتب، وتباين المطالب»^(٣).

(١) نظم الدرر ٤/ ٤٣٧.

(٢) نفس المصدر ٤/ ٥٤٥.

(٣) السابق نفس الصفحة.

وفي هاتين السورتين: الإسراء ومريم مع سورة السجدة جاء لفظ السجود ذاته مصدرا، وقد ذكر البقاعي الديمومة التي تنشر رواقها على الساجدين^(١)، ولكننا مع ذلك نلاحظ أنه لا يمكن أن يأتي فعل يُعرب حالا كهذين الحالين ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ يدل على أنهم يسجدون بعد أن (يخرون)؛ لأن الخرور هو السقوط من أعلى، والسقوط من أعلى يكون سريعا، فلا يناسبه حينئذ الفعل (يسجدون) لو جاء؛ لأن الفعل فيه خاصية التجدد والحدوث، وهو ينافي السرعة التي أرادتها الآية، فجاء المصدر بعد الفعل في هذه الآية وكذا في سورة مريم والسجدة. وهي أحوال تشير إلى تلبسهم بها دفعة واحدة، وما يعضد ذلك أنه في سورة الإسراء قال تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فجاء الحال هنا فعلا مضارعا؛ لأن البكاء على هذه الحال أثناء الخرور ممكن بخلاف السجود - لو كان فعلا - حال الخرور.

كذلك ترتبط هذه السور الثلاث بمجيء لفظ الخرور فيها، ففي الإسراء: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾، وفي سورة مريم ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وفي سورة السجدة ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وإذا بحثنا عن رابط بين هذه السور الثلاث التي انفردت بذكر الخرور مع السجود، والذي صاحبه بكاء في سورتي الإسراء ومريم نجد أن هذه الآيات الثلاث في هذه السور ركزت النظر ناحية صنف من الساجدين لا يحتاجون إلا أن تتلى عليهم آيات الرحمن فتؤثر فيهم تأثيرا عظيما يقعون بسببه إلى الأرض ساجدين؛ حيث نلاحظ أن الأفعال الدالة على تلاوة القرآن جاءت مبنية للمجهول: (إذا تُتلى، إذا يُتلى، إذا ذُكروا بها)، وهي تحمل نفس الزخم الجمالي؛ حيث إن آيات الله لها وقع عظيم من أي مذكّر يذكر بها أو يتلوها، مع ملاحظة تعدي التأثير للآخرين، حيث

(١) نفس المصدر ٤/٤٣٧ بتصرف.

لم ينظر للمذكر أو التالي فحذف، وفي ذلك إشارة إلى أن من يتلو القرآن ربما كان غافلاً، أو شارد الذهن، أو متخذ القراءة حرفة... إلخ، ولكن لا يمكن أن يغفل كل المستمعين، وتشرّد أذهان كل المنصتين للقرآن، بل ربما أثار القرآن في غير المسلمين وربما أثار سماعه في غير العارفين بلغته الشريفة.

ولو قيّد استماع القرآن، أو قيّدت قراءته بقارئ دون آخر لكان في ذلك عنت وأي عنت، والآية الصريحة في استماع القرآن وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣١٤) صريحة باستماع القراءة للقرآن الكريم من أي تال يتلوه، فتأثيره على الآخرين قطعاً لن يتأثر بمن يتلوه، بل بحسن إنصات من يستمع له، وبحضور قلبه، وهذا البناء للفعل هو الذي جعل الخرور يأتي مع هذه العينة التي لا تحتاج لكبير تذكير حتى تعود لرشدتها، بل إن أي مذكر بالقرآن يفضي إلى هز تلك القلوب الخاشعة فتبادر للخضوع، والخرور ساجدة وباكية.

وقد وقف العلماء عند الخرور على الأذقان، وحمله بعضهم على حقيقته؛ حيث ذكر الزمخشري أن أول ما يلقي الإنسان به الأرض حال سجوده هو الذقن^(١) بينما أضاف أبو حيان الأندلسي رأياً آخر وهو الأقرب من دلالة الآية فقال: «والسجود وهو وضع الجبهة على الأرض هو غاية الخرور ونهاية الخضوع، وأول ما يلقي الأرض حالة السجود الذقن، أو عبر عن الوجوه بالأذقان كما يعبر عن كل شيء ببعض ما يلاقيه»^(٢).

بينما لمس الشهاب في حاشيته على البيضاوي جانباً آخر، وهو أن الأذقان تأتي مع الخرور في غير السجود وأورد بيتاً من الشعر:

فخروا لأذقان الوجوه تنوشهم سباعٌ من الطير العوادي وتنتف

(١) الكشاف ٢/٤٦٩.

(٢) البحر المحيط ٧/١٢٥.

وقال بأن الأمر إما أن يكون على الحقيقة فيكون أول مقابل الأرض من الساقط الساجد هو الذقن وليس بمعنى الإلصاق، وإما أن يكون على التمثيل والكناية مبالغة في تحامل الساجد على إلصاق ذقنه بالأرض^(١).

إذن لدينا ثلاثة آراء: واحد يحمل الأمر على الحقيقة فيكون المعنى على مقابلة الذقن للأرض حال أول السجود، والآخر على المجاز المرسل حيث عبّر بالجزء وهو الذقن عن الكل وهي الوجوه، والرأي الثالث هو رأي الشهاب وهو حمله الآية على المبالغة كنايةً لبيان شدة الساجد في خضوعه لله جل وعلا، أو تمثيلاً؛ حيث تستعار هيئة من يلصق ذقنه بالأرض حال سجوده لهيئة المتذلل لله الساجد المبالغ في سجوده.

وإنما خصت الذقن بالذكر لأنها على استقامة واحدة مع الجبهة والأنف، فيكون الوجه كله ساجداً، وذلك مبالغة في الخضوع، وإلا فإن حمل الآية على الحقيقة لتصل الذقن سواء كانت مجمع اللحين حقيقة، أو الشعر الذي عليها مجازاً سيؤدي إلى التكلف في قضية السجود، وسيؤدي ذلك إلى رفع الجبهة عن الأرض، ثم ليس كل الناس لديه لحية، ولا يختص الخضوع لله تعالى، والتذلل له عند عمر معين، فيكون حمل الآية على المجاز المرسل لعلاقة الجزئية، أو الكناية، أو الاستعارة التمثيلية، وإن كان الأولى حملها على الكناية، ثم على الاستعارة التمثيلية؛ لأن ذلك أليق بالسياق، وأبر بحق البيان القرآني.

ثم إن لام الاختصاص التي جاءت مع الأذقان تؤيد هذا الرأي وتعضده؛ حيث قال الزمخشري: «إفان قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت: خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال: ... قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخروج واختصه به؛ لأن اللام للاختصاص»^(٢).

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٦/٦٨ بتصرف.

(٢) الكشاف ٢/٤٦٩.

فلام الاختصاص جعلت الذقن تلزم هذه الحال، وهذا الاختصاص يشير إلى «أن الساقط على وجهه، والخار على ذقنه اضطرارا لا يفرق بين عضو يقدمه أو يؤخره، ولا اختيار له في كيفية استقبال الأرض، فهو ينكب عليها بلا وعي»^(١). فكان الخرور للذقن يوحى بمقدار الخضوع، والخشية التي تسيطر على الخار حتى لا يلقي بالا لأي عضو سبقه إلى الأرض، وإن كان من لوازمه أن لا يصل إليها، أو إن «الإنسان مجبول بالطبع على صيانة وجهه، فهو يرفع رأسه فتصير ذقنه وفمه أقرب ما في وجهه إلى الأرض حال السقوط»^(٢).

وفي سورة الفرقان جاء الاستفهام المحكي على السنة المعاندين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠﴾ وهو يعضد سياق الآية ضمن السورة؛ فقد ذكر الألوسي الآراء التي تحتل هذا التساؤل فقال: «والسؤال يحتتمل أن يكون عن المسمى ووقع بـ(ما) دون (من) لأنه مجهول بزعمهم فهو كما يقال للشبح المرئي: ما هو؟ فإذا عرف أنه من ذوي العلم قيل من هو، ويحتتمل أن يكون عن معنى الاسم، ووقوعه بـ(ما) حيثئذ ظاهر. وقيل: «سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره عز وجل؛ فقد شاع فيما بينهم تسمية مسيلمة برحمن الياهو فظنوا أنه المراد بحمل التعريف على العهد. وقيل: «لأنه كان عبرانياً وأصله رخمان بالخاء المعجمة فعرب ولم يسمعه»^(٣).

ومع تعداده لهذه الآراء إلا أنه قال: «والأظهر عندي أن ذلك عن تجاهل، وأن السؤال عن المسمى»^(٤). ويوضح البقاعي هذا التهكم بقوله عنهم: «متجاهلين عن معرفته فضلاً عن كفر نعمته معبرين بأداة ما لا يعقل»^(٥).

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخصري ص ٢٤٤.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/٤٣٦.

(٣) روح المعاني ٩/٣٩.

(٤) السابق، نفس المكان.

(٥) نظم الدرر ٥/٣٣٢.

وهذا هو الأليق بالسياق هنا؛ فهم يتهكمون بهذه الصفة الجليلة، ويؤيد هذا أنهم كرروه مرة أخرى حينما قالوا: ﴿أَسْجُدْ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فأتوا باسم الموصول (ما) بدل (من) للعاقل.

فأعرض الله جل وعلا عن سخريتهم وأثنى على نفسه من خلال بيان عظم مخلوقاته التي «لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن»^(١) فقال تعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وهذا الإعراض منه جل وعلا يناسب تجاهلهم حينما أمروا بالسجود؛ فإذا كانوا يتجاهلون هذا الاسم أو الصفة له جل وعلا وهي رحمة ظهرت بوادرها في الآيات التي سبقت آية السجدة فقد أخذ الكلام منحى آخر ببيان الثناء عليه سبحانه فقال تعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي تقديس وتنزه عن كل نقص، وهي إشارة ببلوغه تعالى الكمال المطلق المنافي لأي شائبة نقص بدت في نفورهم حينما أمروا بالسجود. أ.هـ.

(١) التفسير الكبير ١٢/٨٢.

النتائج العلمية

ظهرت في نهاية البحث بعض الظواهر الأسلوبية، والتي تمثل نتائج بحثية، ومن أهمها:

١- دقة البيان القرآني من أي جهة بيانية أتت؛ فلو نظر الدارس البلاغي للقرآن الكريم من جهة ألفاظه لوجد إعجازاً، ولو نظر إليه من خلال دقة استثماره للحروف أيا كان نوعها لوجد إعجازاً، وكذا لو وقف أمام السياق الذي يمثل إطاراً أشمل لرأى عجباً.

٢- وجدنا كيف أثرت المقاصد الكلية للسور التي وقفنا عندها في بناء آيات السجدة؛ فوجود الذرية في سورة مريم ووجود الأنبياء بكثرة قبل آية السجدة أفضى لبناء مقصود لآية السجدة نفسها تضمن ذكر الذرية، وتضمن الإشارة لكل الأنبياء، والصفوة الذين سبقوا الآية في سبع وخمسين آية. وفي سورة الأعراف نجد لفظ (التكبر) قد شاع فيها في اثنتي عشرة آية، وذكرت فيها قصة إبليس وهي منبع الكبر وأسه، فإذا بآية السجدة في نهاية السورة ترنو إلى كل ذلك، ويأتي فيها لفظ التكبر مقدماً ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾ بينما لم يأت هذا اللفظ مقدماً في سورة النحل، وسورة السجدة؛ لأنه في الأولى لم يُذكر إلا أربع مرات، وفي الثانية لم يُذكر التكبر إطلاقاً، وفي كلتا السورتين لم تذكر قصة إبليس مع آدم عليه السلام.

٣- كذلك وجدنا في سورة الرعد بناء عجبياً لآية السجدة؛ حيث تشتمل على تضادات معينة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ ﴿الرعد: ١٥﴾ وإذا بحثنا عن هذه الثنائية المتضادة (طوعاً وكرهاً) (الغدو والأصال) وجدنا السورة تقوم على مثل تلك الثنائيات والتضادات.

٤- كذلك وجدنا الفعل المضارع يشيع في آيات السجدة أكثر من غيره، وعزونا ذلك لما تشير إليه حمولة الفعل الفنية من عرض الصورة أمام من يقرأ تلك الآيات، وهو أمر يتسق وفحوى إشاعة السجود بين المؤمنين، وكذلك همولته في التجدد والحدوث كما هو ديدن المؤمنين في سجودهم لله تعالى وخضوعهم له.
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه.

مراجع البحث

- ١- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان، بيروت: دار الفكر ط ١٤٢١ هـ.
- ٢- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر ط الثالثة ١٤٠٠ هـ.
- ٣- التحرير والتنوير، للإمام الطاهر بن عاشور، ط دار سحنون، تونس.
- ٤- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د عبد العظيم المطعني، ط مكتبة وهبة، مصر، ط الأولى ١٤٢٠ هـ.
- ٥- تفسير الشعراوي: خواطر فضيلة الشيخ: محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم.
- ٦- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ط دار صادر، بيروت.
- ٧- حديث الأربعاء، طه حسين، مصر، دار المعارف ط الثانية عشرة.
- ٨- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، ط الخانجي بالقاهرة، ط الثانية ١٤١٠ هـ.
- ٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ط بيروت: دار الكتب المنيرية، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥ هـ.
- ١٠- ساعات بين الكتب، للعقاد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط ٣، ١٩٥٠.
- ١١- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر/ ط دار المعارف، القاهرة.
- ١٢- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج، ضبط وشرح: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤١٥ هـ.
- ١٣- صحيح مسلم / بشرح النووي، بيروت دار الفكر ط ١٣٩٨ هـ.
- ١٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد قرقزان، ط دار المعرفة، بيروت،
- ١٥- في ظلال القرآن، سيد قطب، القاهرة: دار الشروق، ط ١٢، ١٤٠٦ هـ.

- ١٦ - قضية الشعر الجديد، محمد النويبي، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٤.
- ١٧ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام محمود الزمخشري، ط: مصطفى البابي والحلي، مصر ١٣٩٢هـ.
- ١٨ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- ١٩ - مفاتيح الغيب للإمام الرازي، ط دار الغد العربي - مصر ط الأولى ١٤١٢،
- ٢٠ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د محمد الأمين الخضري، القاهرة، دار وهبة، ط الأولى ١٤٠٩
- ٢١ - نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية، د المثني عبد الفتاح محمود، ط الأولى ١٤٢٩، دار وائل للنشر
- ٢٢ - نظم الدرر في تناسب السور للإمام برهان الدين أبي الحسين البقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق المصري، ط ٢، بيروت درا الكتب العلمية ١٤٢٧هـ.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	الملخص.....
٢٠٦	المقدمة.....
٢٠٧	التمهيد.....
٢٠٧	بعض الأحاديث التي وردت في أهمية السجود.....
٢٠٨	آراء العلماء في هذه الآيات عددا وحكما.....
٢١٠	المبحث الأول: السياق الذي نقصده.....
٢١٤	المبحث الثاني: بيان المقاصد الكلية للسور التي وردت فيها هذه الآيات.....
٢١٨	المبحث الثالث: أثر السياق في ربط آيات السجدة بسورها.....
٢١٨	موضع آية السجدة وصلته بالسياق.....
٢٢٨	لفظ الجلالة والصفات في آيات السجدة.....
٢٣٦	المبحث الرابع: الخصائص الأسلوبية لآيات السجدة.....
٢٤٤	النتائج العلمية.....
٢٤٦	المراجع.....
٢٤٨	الفهرس.....